بين الفرية والمرية

للأستاذ فوزى عرفة

قالوا : والفرية معناها الكذب والاختلاق ، والمرية معناها الشك . وبين الفرية والمرية ضمنا نحن ياعرب وظلمنا نحن ياشرق .

ومن فريتهم علينا قولهم إننا جنس سام وهم جنس آرى وتفرقتهم بين السامية والآرية في تسلط كهنوتى لا تسيغه الألباب فنحن — الساميين — على حسب زعمهم ذوو عقول بسيطة لا تطيق التعقيد ولا تحتمل الجهد والتركيب ولهذا فلا نستطيع أن ننفذ إلى الأغوار ولا نسبر الحياة وحسبنا من أمر أن نلقى عليه نظرة عابرة أو استجابة خاطفة بحيث نأخذ مظهره ولا نوغل إلى مخبره ، وأما هم فجنس آرى يتركب مخه من آلاف الآلاف من الأعصاب والمراكز فيدرك أصعب الأمور وأعقدها ويدخل فى صميم الحياة ويستخرج مكنونها وسرها ويستصفى زبدها وخيرها : وهم من أجل ذلك جنس نام بناء ونحن من أجل ذلك أيضاً خامل خيالى : نعيش فى الماضى وهم يعيشون للمستقبل ، ونحن ذوو نفوس مرهفة وهم أصحاب عقول وقادة ، وهكذا يضعون بيننا وبينهم حدودا لا حصر لها تجعلنا فى الشرق قوما ذوى آمال محدودة وطرائق معدودة وخصائص مميزة وتجعلهم فى الغرب قوما ذوى مستقبل مرموق ودرجات صاعدة وصفات منطلقة ولهذا هم يرددون هناك : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا .

ونحن — هنا فى الشرق — نسمع هذا القول فنبتسم ولا نبالى ، لأننا لا نعلم بأى صفة من الصفات يتميز الغرب عنا : فتركيب مخنا — على حسب تسميتهم — يشبه تركيب مخهم وانطلاقنا فى الحضارة وإسهامنا فى الرقى البشرى عامة يشبه مشاركتهم هم أيضا والبناء المستمر من أجل رفاهية البشرية عامة لا يقل عن جدهم وكدهم لولا أن الظروف هى التى عوقتنا وكانوا هم أنفسهم من أهم عوامل هذا التعويق ولولا أن الظلام أحاط بالشرق فترة جعل الفئران والجرذان تجرؤ وتخرج من جحورها

لتقسم العالم فيما بينها وتحكم على العقول وانصباء الناس منها على قدر ما يهيىء لها ذهنها الخصيب .

ولكن العجب العاجب فى مجاراتنا نحن لهم فإذا كان رينان قد ألقى بأحكامه الجائرة ضدنا فليس هذا مبررا بحال من الأحوال ليخرج أحد أدبائنا وفلاسفتنا ويجارى هذه الفرية التى يبطلها البحث العلمى والدليل العقلى المنطق ووقائع التاريخ وأحداثه فيرى أن « الشرق فنان » بطبعه ويتجلى هذا الفن فى ولعه بالجزئيات دون الكليات وفى استغراق مفكريه فى هذه الجزئيات وفى ظور الهدايات والنبوات من أرضه الطاهرة المباركة : وكأنما نور الله الذى يمن به على البشرية قد أصبح فى آخر الزمان سبة ومعرة عندما توضع أقدار الشعوب فى الميزان ! !

أليس من العجب — إذن — أن نردد ونحن فى هذه الأيام وعلى أوسع نطاق دعاوى رينان وجولد تسيهر وسانت هيلر وحتى هتلر الأحمق ! ! ونفخر بهذا الترديد بل نردده فى قداسة كأنما هو حكم القضاء الذى لا يعارض ؟ !

تلك فرية من صنع أوهام العقول . تبعها بعض كتابنا ممن يمجدون الغرب ولا يمجدون فى شرقنا هـذا الناهض النابض أية دلالة من دلائل الرقى والعظمة بل ويردون ما يشتمون فيه من دلائل الأمجاد إلى الغرب الأمجد محبوبهم العزيز .

ومن فريتهم علينا أيضا أن العرب لم يسهموا فى العلوم بباع ولا ذراع : وتسألهم الدليل فيعجزون لأنهم لا يملكون من الدليل إلا ثرثرة اللسان وفيهقة البيان .

ويطل علينا من نافذة التاريخ جابر بن حيان والفارابى وابن الهيثم والبيرونى وابن سينا والادريسى وابن رشد وابن البيطار وابن بطوطة وابن خلدون وأبو الفرج الأصبهانى وما إلى هؤلاء وهؤلاء من العلماء الأفذاذ الذين سجلوا فى التاريخ أفصح صفحاته وأروع آياته بما حافظوا على الطريقة الموضوعية الصارمة التى يدعى الغرب أنه خالقها ومتبنيها . فإذا بأساتذة الغرب من أمثال مونتيه ودرمنجام ينكرون كل صفة حميدة يمكن أن يتحلى بها العرب وينحلون علينا كل مثلبة يظنوها تلوث سمعتنا ، ومن العجب أن يردد هذا القول هنا المرحوم الأستاذ سلامة موسى ثم يخلفه من بعده خلف يخرجون علينا من حين إلى حين بآراء ينقلونها عن الغرب فى سكرة وعمى من

غير تفكير ولا تعقل وما يعيب هؤلاء القوم إلا أنهم يتلقفون أصداء الغرب فيكونوا هم بين أهل الشرق مرددى أصدائها هكذا تقف فريتان أمامنا وجها لوجه : فرية الجنس وفرية العلم فنضيع نحن العرب بين أكاذيب الغرب ونردد نحن العرب هذه الأكاذيب ولو على حساب أنفسنا وواقعنا وحقيقتنا وعقلنا وتفكيرنا ، وإلا فكيف نعارض رأيا صدر من الثقات وأتعبوا فيه أنفسهم ليالى وأياما .

وإن تعجب فعجب قولهم إن الفلسفة يونانية غربية وليست شرقية أو هندية ، وتسأل كيف كان ذلك ؟ فيقال إن اليونان هم أول من نظموا التفكير وانطلقوا نحو الكون يتساءلون عن مشكلاته الكبرى ويحاولون أن يحلوها ، وتقول لهم ، ولكن كيف نفسر حضارة المصريين القدماء مثلا ؟ فيقولون لك فى غطرسة : هذه حضارة مادية بنيت على أساس سد الحاجات المادية والحياتية فقط وأما اليونان فقد بحثوا من أجل المعرفة . فتعجب من هذا التناقض الذى يقعون فيه إذ أنهم مرة يحتقرون الحضارة المادية ويمجدون حضارة النظر والعلم لذات العلم ثم يعكسون الآية مرة أخرى فيحتقرون حضارة النظر والعلم لذات العلم ويمجدون الحضارة المادية والحاجات الإنسانية ، ولكن لم ذلك كله ؟ لأن الحضارة — مادية أو روحية — إذا أتت من الشرق فإنها فى نظرهم تستحق التجريح والاحتقار أما إذا صدرت الحضارة — مادية أو روحية — من الغرب فأخلق بها أن تكون فى أعلى مراتب التمجيد والتفضيل .

وتبحث ثم تبحث فلا يثير عجبك إلا هواة الانبهار من كل ما يصدر من الغرب عندما تجدهم يرددون كلام بير تراند رسل وسانت هيلر ودى بوير فإذا بهم فى شرقنا العربى يشكلون موجات المد الفكرى لأصداء علماء الغرب الأفذاذ .

ويغلب الحق أحدهم فيصرح بأنه على الرغم من علو كعب الغرب فى الفلسفه وأن الفلسفة رضيعة لبنهم إلا أن الأبحاث الحاضرة تثبت عكس ما أقربه العلماء النجب : إذن لماذا نجزم من الآن بشىء لم تقطع الأيام بصدقه ؟ الجواب على هذا حب الترديد لكل ما يتفوه به الغربيون حتى وإن لم يكن مقطوعا به بعد .

ويلجأ أحدهم إلى ما هو أدهى وأمر من ذلك وكأنما هناك تسابق بينهم للحط من كل ما هو شرق فيرى ان فلاسفة الغرب قد أقروا لنا بالطرافة الفلسفية — بعد

أن أرجعوا كل فلسفتنا إلى اليونان — فى ناحيتين ، أولها التصوف الإسلامى والأخرى مشكلة التوفيق بين الدين والفلسفة فإذا به يسبق الحوادث ويعلن فى كتاب عن القومية العربية ! ! بأن التصوف دخيل على القومية العربية ولا يمثل وجهها العربى الصحيح .

وينبغى علينا بعد ذلك أن نلغى عقولنا ونتجاهل آلاف الكتب الصوفية التى تهدى شبابنا الحائر وتفضى به إلى الطريق القويم والتى تمثل أعز ما نملك من تراث روحى يطل على الغرب بآيات الشرق ، كل ذلك من أجل هذا الحكم المقتضب الذى يلقى به سيد من سادات العلم فى غمرة وهمه بأنه يقنن ويشرع لخط سير الأمة العربية جمعاء .

وبعد ، فهذه كلها ظواهر فى حياتنا الفكرية تتداولها الفرية والمرية ويتخذ دعاتها وأصحابها مكان الصدارة منا وهم يريدون — بالطبع — أن يقهرونا على تقبل آرائهم تلك ونحن لا نطلب منهم أن يعدلوا من آرائهم وإنما نطلب إليهم أن يشعروا بالمسئولية الملقاة على عاتقهم كقادة للنهضة ورواد للبناء وأن ينظروا إلى كل غربى نظرة الكيس الفطن الذى يميز خيره من شره وغثه من سمينه ثم يتخيرون أطايبه وينتقون أفضله ويحترزون فى أحكامهم ويقلبون فى تراثنا وأمجادنا قبل أن يحكموا عليها بالعدم والزوال قدر إعجابهم بكتب الغرب واعتزازهم بها فلربما وجدوا فى تراثنا مايدحض دعاوى أعداء الوطن والدين فيأجروا ويثابوا ، وما ذلك عليهم وعلى نفوسهم الكبيرة وعقولهم الناضجة ببعيد .